البناء الفني لقصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير (... ت: 26هـ) دراسة فنية

د/ عبدالهادي أحمد أبوالقاسم

الملخص:

حظيت قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير بنصيب وافر من الاهتمام الذي بلغ ذروته في الشعر العربي قديمه وحديثه، وعلى الرغم من ذيوعها وشهرتها بين الدارسين إلا أنها لم تسلم من اختلاف الآراء عند النقاد من حيث سببها، والتشكيك في صحة إيمان صاحبها وأنها نبعت من نفس صادقة في قبولها الإسلام وتقديم الاعتذار وطلب العفو من الرسول صلى الله عليه وسلم. ومهما وُجّه من انتقاد لهذه القصيدة فما هي إلا انتقادات وجهة نظر أصحابها الذين تضاربت آراؤهم واختلفت وجهات نظرهم دون أن يعطونا الدليل القاطع والحجة الدامغة على صحة ما يزعمون.

وقد تضمنت قصيدة كعب ثلاثة أغراض هي: الغزل ووصف الناقة والرحلة، ثم الغرض الرئيس وهو المدح والاعتذار وطلب العفو، واحتلت القصيدة مكان الصدارة وحذا حذوها الشعراء يسيرون على نهجها وينظمون على منوالها واتخذوها أنموذجاً لهم في قصائدهم المدحية على مر العصور.

وعبرت عن حسن إسلام كعب ومقابلة موقفه هذا من صدور عفو الرسول الكريم عليه ومجازاته بأعظم هدية عرفها تاريخ البشرية، وهي التي تمثلت في خلع بردة الرسول وإلباسه إياها؛ وهي البردة التي صارت لها أهمية بالغة حيث توارثتها الأجيال فيما بعد.

وتهدف الدراسة إلى تحليل قصيدة (بانت سعاد) ، من حيث البناء الفني الذي ارتكز عليه الشاعر ، وقد اعتمد الباحث على المنهج الفني التحليلي ، مع عدم الإشاحة من الإفادة من المناهج الأخرى في موضعها لاستحالة ذلك وانتفاء موضوعيته .

وتكمن أهمية الدراسة في إبراز العلاقة بين البناء الفني لهذه القصيدة ، وبين ترجيح الآراء التي أثيرت حولها ولعل تقديم هذه الهدية الثمينة لكعب خير دليل على أنه في مديحه للرسول الكريم لم يكن يسعى من ورائه إلى مصلحة دنيوية أو دفاع عن قبيلته، بل كان مدحا نابعا من قلب صادق يملؤه الإيمان والتوبة والرجوع إلى الله فيما تبقى من حياته .

الكلمات المفتاحية: كعب بن زهير – البردة – التضمين – موقف الأنصار .

Abstract

The poem (Bant Souad) Laver has received the attention it has reached, and for example, it indicates that it is in the critics, and that it stemmed from a sincere soul in accepting it, presenting Islam and offering an apology from the Messenger(may God bless him and grant him peace)Whatever criticism was leveled against this poem, it is only criticism from the point of view of our companions whose opinions and views differed without giving us the conclusive evidence and the compelling argument for the validity of what they weigh. This poem included three purposes: spinning, describing the she-camel and the ram, then the main ground, which is praise, apology, and asking for forgiveness.

The poem occupied the forefront, and poets followed suit, following its approach and organizing according to its path, and they took it as a model for them in their laudatory poems throughout the ages. And she expressed the goodness of Kaab's Islam and his response to this position regarding the issuance of the Prophet's pardon and rewarding him with the greatest gift known to human history, which was the removal of the Messenger's mantle and his wearing it; It is the burdah that has become of great importance as it was passed down through the generations .

The study aims to analyze the poem (Bant Souad), in terms of the technical artistic on which the poet was based. The researcher relied on the analytical technical method. Without omitting to benefit from other approaches in their place, due to the impossibility of that and the absence of its objectivity.

Presenting this precious gift to a heel is the best evidence that in his praise of the Noble Messenger, if he was seeking a worldly interest or defending his tribe, he was a praise emanating from a sincere heart filled with faith, repentance and return to God for the remainder of his life.

Key words:

Kaab bin Zuhair - Al-Burdah - Al-Tadmeen - the position of the Ansar

تمهيـد:

ركزت هذه الدراسة على البناء الفني لقصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير وقد حظيت هذه القصيدة بنصيب وافر من الإشادة بها على مر العصور، وإذا نظرنا إلى قصائد المديح التي نظمت في الرسول صلى الله عليه وسلم فهي من الكثرة بمكان لكن هذه القصيدة انفردت من دون غيرها بعدد من المميزات، التي جعلتها تبلغ الذروة بين قصائد المديح على الإطلاق قديماً وحديثاً.

والمديح هو المديح نفسه لكنه يتفاوت في درجة الإبداع والخاصية. ويخطر بذهني سؤال طرحته السيدة سُكَينة بنت الحسين –رضي الله عنها- على الفرزدق حينما قالت له: ما أبلغ بيت في المديح قالته العرب؟ فقال لها: هو قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (*)

والذي دفعني إلى أن أنقل هذا السؤال وجوابه هو موقف عبد الملك من هذا الإطراء، حيث اهتز به كرسي الخلافة فرد على جرير: نحن لها وما زلنا ، ثم استدرك عبد الملك وقال موجهاً كلامه لجرير: إن هذا المدح لا يليق بعبد الملك بن مروان وكان الأجدر بك أن تخص به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم؛ فهو خير من ركب المطايا ويده الشريفة أكرم يد عرفتها البشرية في الوجود وعلى مر العصور، وهذا ما راعاه كعب في هذه القصيدة حيث جاءت مليئة مفعمة بالصفات التي تمثلت في شخصية الرسول عليه السلام.

ومن ثم فإن أفضل شعر قيل في المدح هو ما جاء في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومهما بلغ مدح الشعراء لهذا الرسول الكريم فإنه لا يرقى إلى المستوى الذي بلغته قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير.

وفي اعتقادي أن هذه الحظوة وعلو المنزلة والمكانة التي اختصت بها هذه القصيدة أنها جاءت لسببين اثنين ؛ أولهما: صدرت من شاعر مرموق يعد من الفحول في الجاهلية والإسلام ، والسبب الآخر أنها أصبحت مضرب الأمثال احتذى بها سائر الشعراء حذْو صاحبها وساروا على نهجها في الشكل والمضمون وما اشتملت عليه من الألفاظ الرفيعة والمعاني الصادقة التي هدفها الأساس هو ما يليق بمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد العرب والعجم على الإطلاق منذ أن خلق الله البشرية إلى يوم يبعثون.

وإذا خصّينا كعباً هذا فلا يجب أن نغفل أبرز الشعراء سواء في الجاهلية والإسلام الذين أثروا في الحياة الأدبية تأثيراً ملحوظاً والذين يأتي في مقدمتهم حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام والمنافح عنه في التصدي للأعداء والرد عليهم والدفاع عن العقيدة، ومنهم أيضاً كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة والعباس بن مرداس.

كعب بن زهير

اسمه ونسبه:

هو كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى بضم السين، ولا يوجد عند العرب سُلْمَى غيره، أما سَلْمَى بفتح السين فهو كثير، وقد ترجم له صاحب الأغاني ترجمة مستفيضة بلغت إحدى عشرة صفحة تحدث فيها عن نسبه وأول شعر قاله، وسبب إسلامه وقصيدة (بانت سعاد) التي ارتجلها في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. وقال عن نسبه: «كعب بن زهير ابن أبي سلمى المزنيّ ... وأم كعب امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سُحَيم، وهي أم سائر أولاد زهير. وهو من المخضرمين، ومن فحول الشعراء»[1].

وكنيته أبو عقبة وهو «شاعر عالي الطبقة من شعراء نجد ومن أعرق البيوتات، واشتهرت لاميته التي مدح بها الرسول، وكثر الاهتمام بها قديماً وحديثاً، وتوفي كعب سنة (26) هجرية»[2].

أَمَّا سنة ميلاده فقد أغفلتها كتب التراث ولم تشر إليها لا من قرب ولا من بُعد.

«ولم يؤرخ ابن عبد البر وفاته في (الاستيعاب)، وكذلك لم يؤرخها أبو الحسن بن الأثير في كتابه (أسد الغابة في معرفة الصحابة)، وذكر أن أباه توفى قبل البعثة بسنة والله أعلم»[3].

وجعله ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية الجاهليين، وقرنه بأوس بن حجر وبشر بن خازم، والحطيئة[4].

حياته في الجاهلية:

هو شاعر جاهلي مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم، لكنه خاض –أول الأمر- مع الخائضين وانغمس في الشرك وظلمات الجهالة، وتعنت أول الأمر .. وأصر على كفره وطغيانه؛ حيث تمثل هذا الضلال في نصبه العداء لسيد العرب وإمام المرسلين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وأخذته العزة بالإثم وسار مع هوى النفس الأمارة بالسوء حيث قادته إلى إعلان الحرب على الله ورسوله.

حياته في الإسلام:

حياة كعب في الإسلام حياة مذبذبة لا تستقر على حال بل عاشها بين مد وجزر وتردد أول الأمر

(*) ديوان جرير، تحقيق، محمد إسماعيل عبدالله الصاوي، مكتبة محمد حسين النووي، دمشق سوريا، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت/لبنان ط (د – ت)، ص 98.

(1) الأغاني: الأصفهاني (أبو الفرج ت: 356هـ)، تحقيق علي محمد البجاوري بإشراف محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، 17/ 82.

(2) الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، مايو 2002م، 5/ 226.

(3) البداية والنهاية: ابن كثير (ت: 774هـ)، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط (د – ت)، 4/ 374.

(4) طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (ت: 231هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط (د – ت)، 1/ 99.

وما أن علم بإسلام أخيه بجير حتى ازداد إصرارا على موقفه من الإسلام كما تدل على ذلك أشعاره التي سنقف عليها عند حديثنا عن مناسبة القصيدة ، ومهما كان الأمر فرب ضارة نافعة ، إذ كان حقده على أخيه بسبب إسلامه هو الذي هداه للإيمان والانتقال من ظلام الشرك إلى نور اليقين ، وقد جرى حديث بينه وبين أخيه بجير حيث طلب منه أن يذهب إلى الرسول عليه السلام ويأتيه بخبره، «فسار بجير إلى النبي، وسمع منه، فأعجبه الدين الجديد، فأسلم، وذلك قبيل السنة السابعة للهجرة »[1].

موهبته الشعرية:

يبدو أن موهبة كعب الشعرية تفتقت منذ سن مبكرة وهذا شيء لا غرابة فيه؛ لأنه نشأ في أسرة شاعرة، فأبوه زهير شاعر من شعراء الطبقة الأولى الجاهلية وجده أبو سلمى شاعر، وعمته الكبرى لأبيه شاعرة وأخته الخنساء شاعرة وأخوه بجير شاعر[2].

وهذا ما جعله «شاعراً مجوداً كثير الشعر، مقدماً في طبقته». قال خلف الأحمر: «لولا قصائد لزهير ما فضلته على ابنه كعب»[3].

وقد اعتنى به أبوه وهو صغير فحذره من التعجل في القول حتى لا يأتي نظمه ركيكاً ضعيفاً فينفر منه الناس ، فاعتزم زهير على تعليم ابنه تجويد الشعر وإحكامه ، «فلما رآه اقتدر على الشعر وأحكمه واجتمعت له معانيه، وقدر على ارتجاله من غير تراخ ولا إبطاء ولا عجز، قال قد أذنت لك في الشعر يا بني»[4].

مناسبة القصيدة:

قضى كعب بن زهير ردحاً من الزمن وهو يعيش في ظلمات الشرك والضلالة، فوقف من الإسلام موقف الشارد المعاند الذي كان يظهر الخصومة والعداء . ولما علم كعب بإسلام أخيه غضب وثار، وصار يقول الشعر في هجاء المسلمين، ومحاولة النيل من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ، إذ أرسل أبياتاً إلى أخيه كعب يهجوه ويعاتبه فيها ويؤنبه على إسلامه يقول فيها [بحر الطويل]:

---

(1)ديوان كعب بن زهير : صنعة الإمام أبي سعيد الحسين بن الحسين السكري، قدم له ووضع فهارسه وهوامشه الدكتور حنا نصر الحي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1414هـ| 1994 م ، ص 25 ، 26 .

(2)الشعر والشعراء: ابن قتيبة (ت: 276هـ)، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، دار الحديث، الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2001م، 1/ 100 – 103. والسيرة النبوية: ابن هشام (ت: 218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط (د – ت)، ص 146.

(3) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (ت: 462هـ)، تحقيق: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م، ص 629.

(4) الأغاني ، 15/ 141 .والبداية والنهاية ، الطبعة الثانية ، 1408هـ/ 1988م، مجلد 2/ ج4، ص ص 372، 373.

أَلَا أَبْلِغَـــا عَنِّـــي بُجَيـــراً رســـالةً ... فَهَـلْ لَـكَ فيمـا قُلْـتَ وَيْحـكَ هَـلْ لَكَـا

سَـــقَاكَ بهـــا المـــأْمونُ كَأْســـاً رِوَيَّـــةً ... فَأَنْهَلَـــكَ المـــأْمونُ منهـــا وَعَلَّكَـــا

فَفَارَقْـــتَ أَســـبابَ الهُـــدى واتَّبَعْتَـــهُ ... عَلَـــى أَيِّ شَـــيءٍ وَيْـــبَ غَيـــرِكَ دَلَّكَـــا

عَلَـــى خُلُـــقٍ لـــم تَلْـــفَ أُمّـــاً ولا أَبـــاً ... علَيـــه ولَـــم تَعْـــرِفْ عليـــه أَخـــاً لَكَـــا

والمأمون اسم النبي –صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة نعتته به قريش .. وما أن وصلت هذه الأبيات إلى أخيه بجير فتأملها وأخبر بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: «صدق أنا المؤمن وإنه لكاذب أَجَلْ لم يلف أباه وأمه على الإسلام»[1].

وما كان من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- إلا أن أهدر دمه وقال: «من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله»[2]. وكانت هذه الأبيات هي السبب الرئيس في إهدار دمه.

وخاف بجير على أخيه وأرسل إليه «ويلك إن النبي أوعدك ... وهو والله قاتلك أو تأتيه فتسلم»[3].

وبعث إليه بهذه الأبيات: [بحر الطويل]

وقول بجير إن رسول الله أوعد قوما فقتلهم هل هذا صحيح؟ لم يثبت أن الرسول قد أهدر دم أحد بسبب الهجاء فقتله، وما هي إلا مبالغة من بجير ليخوف أخاه، أو هي من كلام الرواة.

مَـــنْ مُبْلِـــغٌ كَعْبـــاً فَهَـــلْ لَـــكَ فـــي التـــي ... تَلُـــومُ عَلَيهـــا بَـــاطِلاً وَهْـــيَ أَخْـــرَمُ

إِلـــى اللـــهِ لا العُـــزَّى وَلا الـــلَّاتِ وَحْـــدَهُ ... فتنجـــو إذا كـــانَ النَّجَـــاءُ وَتَسْـــلَمُ

لَـــدَى يَـــوْمٍ لا يَنْجُـــو ولـــيسَ بِمُفْلِـــتٍ ... مـــن النـــاسِ إلا طَـــاهِرُ القَلْـــب مُسْـــلِمُ

فَـــدِينُ زُهَيـــرٍ وَهُـــو لا شَـــيْءَ دِينُـــهُ ... وَدِيـــنُ أبـــي سُـــلْمَى عَلَـــيَّ مُحَـــرَّمُ

وما أن قرأ كعب هذه الأبيات حتى استطير ولفظته[4] الأرض وضاقت عليه بما رحبت وجُن جنونه .. فلجأ إلى مزينة قبيلته لتشفع له وتجيره من النبي –صلى الله عليه وسلم- لكنها تخلت عنه ولم تسانده على غيه وضلاله .. فما كان منه إلا أن طار إلى المدينة ونزل على رجل من جُهينة -كان على سابق معرفة به- «فلما صلى الصبح أتى به وهو ملثم بعمامته، فقال: يا رسول اللهَ! رجل يبايعك على الإسلام وبسط يده وحسر عن وجهه، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، [هذا] مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير. فتهجمته الأنصار وغلّظت عليه، لما ذكر به رسولَ الله، ولانت له قريش وأحبوا إسلامه وإيمانه، فأمنه

---

(1) ديوان كعب بن زهير ، ص ص 25 ، 26 .

(2) الأغاني ، 17 / 42 .

(3)الديوان: ص 26، وطبقات فحول الشعراء ، 1 / 99 .

(4) نفسه والصفحة نفسها.

رسول الله، فأنشد مدحته التي يقول فيه: (**بانت سعاد ... البيت**). حتى انتهى إلى قوله: (**... لم يُشف مكبول**).

وقـــال كـــل خليـــل كنـــتُ آمُلُـــه لا أُلْفِيَنَّـــكَ إنـــي عنـــكَ مَشْـــغُولُ

فكساه النبي –صلى الله عليه وسلم- بردة، اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير ... قد سُمِّي. وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في العيدين.

أما ابن هشام فيروي أن كعباً لم يفصح عن اسمه لأول وهلة، بل قال: «يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نعم؛ قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): دعه عنك، فإنه جاء تائباً نازعاً [عما كان عليه]»[1].

مكانة القصيدة وعدد أبياتها:

السؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل هذه القصيدة التي مدح بها كعب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مردها إلى وازع ديني محض جاء بعد أن هداه الله للإسلام وأقر الشهادة التي نطقت بها جوارحه واستقرت العقيدة في قلبه، كيف وهو حديث عهد بالإسلام أم أنها جاءت خشية العقاب؟!

نلتقي في هذا الصدد بأحد الباحثين وهو الدكتور زكي مبارك ليطلعنا على رأيه حيالها إذ يقول: «وهذه الظروف ترينا أن كعب بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بعاطفة دينية قوية تسمو به إلى روح التصوف، إنما هي قصيدة من قصائد المديح يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف وليست من المدائح النبوية في شيء»[2].

الإ أن هذا الباحث لم يعطنا الدليل القاطع الذي يعزز به رأيه هذا، ولذلك يجب علينا أن ننظر إلى القصيدة من حيث كونها مديحا صرفا صدرت من نفس مؤمنة، صدقت في إيمانها وتصديقها بنبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام، كما أنه ثمة علاقة وطيدة تربط بين القصيدة ومناسبتها، وبهذا نالت شهرتها عن قصائد المديح دون منازع .

فهاهو الدكتور علي جواد الطاهر يقول:« وأحسب لو أن القصيدة صدرت بعيدة عن مناسبتها الدينية، لما لقيت عشر معشار مالقيت»[3].

---

(1)الشعر والشعراء ، 1 / 100 – 103 . والسيرة النبوية ، ص 146 .

(2) المدائح النبوية في الأدب العربي، الدكتور زكي مبارك، دار الحجة البيضاء، طبعة (د – ت)، ص ص 20، 21.

(3) فوات المحققين نقد لكتب محققة من التراث، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1999م، ص264.

أما عن عدد أبيات القصيدة فقد اختلف عند الباحثين نجتزئ بعضاً منهم والعدد الذي أورده. فالذهبي مثلاً أوردها (39) بيتاً، أما أبو عبد الله الحاكم فقد ذكرها (51) بيتاً وعدها ابن كثير (54) بيتاً، وكذلك البيهقي، وعند ابن حجة الحموي في شرحه لها بلغت (55) بيتاً وهو العدد نفسه الذي ورد في ديوان كعب بن زهير ويذهب ابن هشام في السيرة إلى أنها (58) بيتاً وكذلك عند أبي زيد القرشي في الجمهرة .

ويبدو أن الدكتور زكي مبارك نظر إلى صاحب القصيدة من طرف خفي؛فأي تصوف يعنيه ياترى؟!والرجل حديث عهد بالإسلام،حيث مازالت الروح الجاهلية تسيطر على خياله وتفكيره .ومهما كان الأمر فنحن نلتمس العذر لكعب؛لأن العادة الجاهلية تكون موروثة يكتسبها الشاعر من بيئته التي عاش وترعرع فيها وتلازمه إلى وقت طويل.

أولاً- البناء الفني للقصيدة

هيكل القصيدة

المطلع:

أولى القدماء عناية ملحوظة بمقدمات الأعمال الأدبية، ما يشي بفطنة وصواب رؤية حال وارتهان نجاح هذه الأعمال وخطوتها بمكانة واستحسان لدى المتلقين، فلم يزل يُعهد لديهم أن يوصوا بقولهم: «أحسنوا معاشر الكتّاب، الابتداءات فإنهن دلائل البيان»[1].

فضلاً عن ذلك أنهم «كانوا يوجبون على من يتصدى لمقصد من المقاصد أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد دالاً عليه شعراً كان أم نثراً»[2].

أما القصيدة فقد حاز مطلعها موقعاً عظيماً من عناية النقاد، إلى الحد الذي جعل منه المدخل الأساسي في نجاح العمل الشعري، فقد عدوا الشعر قفلاً أوله مفتاحه[3].

وبهذا فهم يعدون المطلع أول ما يقع في السمع من القصيدة، والدال على ما بعده، المنزل من القصيدة منزل الوجه والغرة[4].

---

(1) كتاب الصناعتين لأبي الهلال العسكري (ت: 395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، (د – ت)، ص 451.

(2) ابن الأثير (ت: 637هـ)، المثل السائر ...، تحقيق الدكتور أحمد الحوفي، الدكتور بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة- القاهرة، الطبعة الأولى، 1380هـ/ 1960م، 3/ 96.

(3) انظر، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق (ت: 456هـ)، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الغواص، الطبعة الثانية، 1441هـ/ 2019م، 1/ 350.

(4) انظر، حازم القرطاجني (ت: 684هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1986م، ص ص 309، 310.

ولعل مطلع القصيدة بقوله :(**بانت سعاد**) ، يوحي بأنه «يريد به امرأة يهواها حقيقة أو ادعاءً»[1].

ومثل هذا كثير في الشعر العربي، وأحياناً لا يخص الشاعر امرأة بعينها يقول جرير:

يـــا أم عمـــرو جـــزاك اللـــه مغفـــرة ردى علـــي فـــؤادي كالـــذي كانـــا[**]

فأم عمرو هي أي امرأة يرمز إليها الشاعر.

أما مقدمة القصيدة –عند الشعراء المخضرمين- فيشير الدكتور حسين عطوان إلى أن نفراً من هؤلاء الشعراء نجدهم يفتتحون قصائدهم بالمقدمة الغزلية، وهذا يجعل مضمونها متفقاً مع أشعارهم في الجاهلية[2].

وقد أورد صاحب جمهرة أشعار العرب :[3]

هَيْفـــاءُ مُقْبِلَـــةٌ عَجْـــزَاءُ مُـــدْبِرَةٌ لا يُشْـــتَكى قِصَـــرٌ منهـــا ولا طُـــولُ

أي أنها ضامرة البطن والخصر معتدلة القوام .

المقدمة :

وفيما يخص قصيدة (بانت سعاد) -التي بين أيدينا- نجد أنها تضمنت ثلاثة أغراض رئيسة هي: الغزل الذي استغرق فيه الشاعر (13) ثلاثة عشر بيتاً، بدأها بالغزل ثم وصف الناقة والرحلة، وقد اشتمل على (18) ثمانية عشر بيتاً، ثم الغرض الأصلي وهو المدح والاعتذار وطلب العفو. أما مقدمة القصيدة فقد بدأها بقوله[4]: [من البسيط]

بانَـــتْ سُـــعادُ فقَلْبـــي اليَـــوْمَ مَتْبُـــولُ مُتَـــيَّمٌ إِثْرَهـــا لـــم يُجْـــزَ مَكْبُـــولُ

ومـــا سُـــعادُ غـــداةَ البَـــيْنِ إِذْ رَحَلـــوا إِلاَّ أَغَـــنُّ غَضِـــيضُ الطَّـــرْفِ مَكْحُـــولُ

تَجْلُـــو عَـــوارض ذي ظَلَـــمٍ إِذا ابْتَســـمتْ كأَنَّـــهُ منْهَـــلٌ بـــالرَّاحِ مَعْلُـــولُ

شُـــجَّتْ بـــذي شَـــبَمٍ مِـــن مـــاءِ مَحْنِيـــةٍ صـــافٍ بـــأَبْطَحَ أَضْـــحى وهـــو مَشْـــمُولُ

---

(1) مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1987م، ص ص 45 – 48.

(**) ديوان جرير، ص594.

(2) الديوان، ص ص 26، 27.

(3) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، القرشي، تحقيق، الدكتور محمد علي الهاشمي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1435هـ/ 2014م، 2/ 790.

(4) شرح بانت سعاد، ابن هشام (ت: 218هـ)، دراسة وتحقيق، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013م، ص187.

وقبل أن ننتقل إلى المحور الثاني هو الرحلة ووصف الناقة علينا أن نقف ملياً عند هذه المقدمة فنجد أن شيئاً ما لافتاً للنظر وهو أنها بدأت بالغزل على عادة عرب الجاهلية في مطالع قصائدهم، وكعب معذور في ذلك؛ لأنه يحافظ على الموروث وما ألفى عليه الأجداد والآباء حتى لا يخرج عن القاعدة المألوفة في الشعر القديم من وقوف على الأطلال ووصف الدمن التي أصبحت قفراً بعد إحلال، ثم ينتقل الشاعر بعدها إلى الغزل وذكر الحبيبة وهذا ما فعله كعب .. ومع تمسكه بهذه العادة إلا أننا نجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لم يعترض عليه بل كانت هذه القصيدة محط إعجاب عند الرسول الكريم .

«وهذا يسلمنا إلى الإشارة بأن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كان من الفطنة والإحاطة بأحاسيس الشعراء ما يمكنه من إدراك عدم قدرتهم على التخلص من كافة القيود الجاهلية حتى في هذا الفن الذي أذابوا فيه تجارب طويلة فغدا سجلاً زاخراً بمآثرهم ومثالبهم. ثم إن رحابة صدره –صلى الله عليه وسلم- في أخذ الناس تفكيره جعله يصغي للشعراء، ويعمل على توجيههم الوجهة السليمة التي يرتضيها الإسلام»[1].

«وفي اعتقادي أن هذه المقدمة الغزلية على ما فيها من شفافية وعذوبة فهي لا تدل على الحب، وإنما هي عادة رمزية جرت على مر عصور الشعر حسب العرف المتداول، ولو كانت المقدمات تدل على الحب فعلاً لما بدأ كعب هذه القصيدة التي ألقاها في حضرة الرسول –صلى الله عليه وسلم- بهذا، ولو فعل ذلك لقام أحد الصحابة بضرب عنقه خاصة وأن له مشكلات عديدة من قبل مما كانت سبباً في إهدار دمه، ولكنه قوله: "بانت سعاد..." ما هو إلا نوع مما جرى به العرف بين الشعراء على مر العصور»[2].

لهذا نجد أحمد الشايب يؤيد قول الباحث فيقول: «أترى شاعراً يبيح لنفسه هذا المطلع في النسيب أمام النبي لولا أنه ينطق عن عادة بدوية وسجية متوارثة وخطة مرسومة»[3].

ولكن نسأل أنفسنا، وهل كان الغزل عند العرب عيبا أو حراما؟ وهل سمعنا عن شاعر ضرب الناس عنقه في الجاهلية أو الإسلام لأنه تغزل؟ فلماذا ينسب إلى المسلمين أنهم ينكرون الغزل، ولماذا نأخذ برواية هذا الموقف على أنها رواية صحيحة، أليس فيها مبالغة؟ ألا يدل قبول الرسول هذا الغزل

---

(1) الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، الدكتور زكريا عبد الرحمن صيام، دون الطبعة وتاريخها، ص 221.

(2) شعر جرير – دراسة فنية، الدكتور عبد الهادي أحمد أبو القاسم، رسالة دكتوراه مخطوطة، نوقشت بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عام 2011م، ص 27.

(3) الغزل في تاريخ الأدب العربي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة – تونس، الطبعة الأولى، 1994م، ص 40.

الجميل على لطف الرسول ورقته وذوقه وهو العربي الذي سمع الشعر، وقال: إن من البيان لسحرا؟

ويبدو لي أن سعاد تعبير عن السعادة أو بالأحرى الأمن والأمان والطمأنينة التي كان يحس بها كعب، ولكنها بانت وفارقته بعد أن أهدر الرسول دمه، وإهدار الدم هو في الحقيقة من باب التهديد، والإنذار، وليس من باب الحقيقة، ومن قبل أهدر النعمان ملك الحيرة دم النابغة الذبياني، فاعتذر إليه، ولم يقتله.

وأكبر دليل على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- عبّر عن رضاه وقبوله أنه ميزه عن جميع المادحين لشخصه الكريم حيث خلع عليه بردته التي نسبت القصيدة إليها وصارت نبراساً ودليلاً يحتذى به سائر الشعراء فيما بعد وعلى مر العصور.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الغزل جاء طواعية من نفس راضية مقتنعة بما تقول وهو لا يخالجه شك من أنه غزل يعبر عن صدق شعوره وعاطفته، وإلى مثل هذا المعنى يشير الدكتور شوقي ضيف حين قال: «ومن أهم ما يحتاج إليه الغزل أن يكون طبيعياً صادراً عن شعور حقيقي، لا عن تكلف وافتعال»[1].

الرحلة ووصف الناقة:

يمثل القسم الثاني من هذه القصيدة، وقد طغى هذا القسم على محاور القصيدة برمتها. والناقة –كما نعلم- هي ربيبة العربي وعدته وعتاده وسفينته التي يقطع بها الفيافي ليصل إلى غرضه الذي بنى عليه رحلته إما إلى المحبوب أو إلى الممدوح طلباً للعطاء وتحقيق هدفه ..، ولهذا كان العرب قديماً ينزلون الناقة منزلة الأم، ... وهي وسيلتهم في الترحال، حيث لديها القدرة على تحمل العطش عندما تجوب الصحراء بما فيها من مخاوف وصعوبة سير وما يتعرض لها البدوي فيها من ملاقاة الوحوش الضارية التي يكون منها على حذر .. ولا سبيل له من ذلك إلا ناقته الأنيس الوحيد لما منحها الله من صبر وجلد وقوة تحمل، ولذلك أطلقو على الجمل (سفينة الصحراء).

ومما لاشك فيه أن هذه الرحلة على ظهر الناقة في الصحراء ما هي إلا رحلة متخيلة وهي أسلوب فني جمالي للتعبير عن الرغبة الأصيلة في الوصول إلى الممدوح، والتأكيد للعواطف التي يصعب التعبير عنها إلا بمثل هذه المشقة التي يرمز إليها السفر عبر الصحراء.

بدأ كعب هذه الرحلة بذكر الحبيبة التي أدركها المساء وصارت بأرض بعيدة لا بغية من الوصول إليها إلا بشد الرحال بناقة أصيلة لها من القوة والصلابة وخفة السير ما يوصله مبتغاه.

---

(1) التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، الطبعة العاشرة (د - ت)، ص 210.

ثم نجده ينتقل بنا فجأة إلى خلع عدد من الصفات على هذه الناقة فيقول:

أمســـت ســـعاد بـــأرض لا يبلّغهـــا ... إلا العتـــاق النجيبـــات المراســـيل

ولـــــن يبلغهـــــا إلا عـــــذافرة ... فيهـــا علـــى الآيـــن إرقـــال وتبغيـــل

مـــن كـــل نضـــاخة الـــذفرى إذا عرقـــت ... عرضـــتها طـــامس الأعـــلام مجهـــول

ترمـــي الغيـــوب بعينـــي مفـــرد لهـــق ... إذا توقـــــدت الِحـــــزاز والميـــــل

ضـــخم مقلـــدها فعـــم مقيـــدها ... في خلقهـــا عـــن بنـــات الفحـــل تفضـــيل

يمشـــي القـــراد عليهـــا ثـــم يزلقـــه ... منهـــا لبـــان وأقـــراب زهاليـــل

نواحـــة رخـــوة الضـــبعين لـــيس لهـــا ... لمـــا نعـــى بكرهـــا النـــاعون معقـــول

تفـــرى اللبـــان بكفيهـــا ومـــدرعها ... مشـــقق عـــن تراقيهـــا رعابيـــل

وكأني به يشير إلى وصف الناقة عند طرفة بن العبد الذي وصف ناقته بأوصاف عدة في معلقته جاء من بينها قوله[1]:

وإنّـــي لأُغْضـــي الهَـــمَّ عنـــد احتِضَـــارِه ... بعَرْجَـــاءَ مِرْقَـــالٍ تَـــرُوحُ وتَغْتَـــدِي

علـــى مِثْلهـــا أَمْضـــي إذا قـــال صَـــاحِبي ... أَلَا ليتنـــي أَفْـــدِيكَ منهـــا وأَفْتَـــدِي

فالضمير في "منها" في البيت الثاني يعود على الصحراء وهي لم يرد لها ذكر في هذا البيت على حد قوله تعالى: ﴿ **حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ (سورة ص: 32)، وهو يريد الشمس. وفي البيت الثالث يصفها بأنها ناقة نضاخة أي كثيرة العرق من شدة السير وعرقها كأنه الماء عندما يفور ويتفجر. قال تعالى: ﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ** ﴾ (سورة الرحمن: 66).ثم يشير إلى معالم الطريق التي غابت عن أعين الناس حيث لا يوجد لها أثر واضح .

ولعل مهمة الناقة لا تنحصر في اتخاذها مطية للرحلة ، بل نجد بعض العرب اتخذ الناقة « حمالة أسرار حربية ... فكان الرجل يركبها حاملا أسرار قومه ومايبيته لهم العدو ، فينطلق إليهم ليخبرهم بما بيتوه لهم ، ويرفض استخدام الخيل حتى لا يفتضح أمره . فإن القوم عرفوه إذا ركب

(1)ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1423هـ/ 2002م، ص ص 20 – 23، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابن الأنباري (ت: 328هـ)، تحقيق وتعليق، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، (د - ت)، ص ص 149- 182، سلسلة ذخائر العرب (35).

فرسه فهو غاز أو مغير ، فيخدعهم بركوب الناقة مهما كلفها من طول الطريق »[1].

التخلص :

وبعد هذه الأبيات التي استغرقت مساحة كبيرة في وصف الناقة نجده يصل بنا في بقية أبيات القصيدة إلى الغرض الرئيس وهو طلب الاعتذار والمدح وطلب العفو .. فيقول متخلصا للمديح :

يَسْعَى الوُشَاةُ بِجَنْبَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ ... لا أُلْفَيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

فَقُلْتُ خَلُّوا طَرِيقِي لَا أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يَوماً عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

يبدأ هذه الأبيات بذكر الوشاة الذين ينقلون عنه الأخبار الكاذبة وهم يؤكدون أنني مقتول لامحالة. والضمير في "جنبيها" يعود إلى سعاد أي الوشاة يسعون إليها بوعيد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أو إلى الناقة؛ وهو الأرجح عند ابن هشام[2]، بحجة أن الحديث عنها .. ثم يقول: لقد عقدت الأمل على الأحبة والأخلاء والأقرباء من قبيلتي "مُزينة" التي أسلمت قبله، لكن لا حياة لمن ينادي حيث تخلى عني جميعهم مدعين أنهم مشغولون بأحوالهم ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، ولما يئس من وقوفهم معه والانضمام إلى صفه طلب منهم أن يتركوه وشأنه، متمثلاً قوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ (سورة التوبة: 51)، وأن الذي يقدره الرحمن لا مفر منه وكل يحاسب حسب نيته وما تنطوي عليه سريرته، والإنسان مهما طالت به الأيام فلابد من أنه مغادر لهذه الحياة وهو وفي قبضة الموت ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾ (سورة النساء: 78)، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ** ﴾ (الجمعة: 8).

---

(1)العدة النفسية والمادية في شعر الحروب الجاهلية، الدكتور عبد الرحيم محمود زلط، دار المعارف، 1989م، ص 202.

(2) شرح بانت سعاد، ابن هشام، تحقيق الدكتور محمود عكاشة، ص 459.

الغرض الرئيس :

وينتقل إلى عفو رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وكله أمل أن يقبل اعتذاره ويعفو عنه ويغض الطرف عما بدر منه في الجاهلية وهو غير فاقد للأمل.

يقول:

أُنْبِئْـــتُ أنّ رَســـولَ اللـــهِ أَوْعَـــدَنِي ... والعَفْـــوُ عنـــد رسُـــولِ اللـــه مَـــأْمُولُ

مَهْـلاً هَـداكَ الـذي أَعْطَـاكَ نَافِلـةَ الْـ ... ـقُـــرآنِ فيهـــا مواعيـــدٌ وتَفْصِـــيلُ

لاتأْخُـــذَنّي بـــأقوالِ الوُشـــاةِ ولَـــمْ ... أُذْنِـــبْ ولـــو كَثُـــرتْ عَنّـــي الأَقَاوِيـــلُ

بعد أن فند أقوال الوشاة عرج على ما تحدثه به نفسه بأن الرسول الكريم هو الأمل الوحيد الذي يلجأ إليه من يلوذ به؛ لأنه صاحب العفو دون منازع ولا يرد آملاً فيه وطامعاً في قبول اعتذاره، كيف وهو الذي أوصاه ربه بقوله: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (الأعراف: 199).

وبعد أن يسأل النبي العفو والاستعطاف فكأنه يقول: أيها الرسول الكريم مهلاً حتى يتبين لك الرشد من الغي، فالرشد مني والغي من الوشاة فأنت الذي أرشدك الله وخصك بالقرآن وما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة وفصل الخطاب. ومهما كان من أمر الوشاة وأقاويلهم فأنا لم أرتكب ذنباً أو جرماً استحق عليه العقاب .

الخاتمــة:

هي دائماً آخر شيء يقفل به الشاعر قصيدته، ويختلف الشعراء في اختيار خواتيم قصائدهم . والخاتمة هي القاعدة الرئيسة التي ينهي بها الشاعر ما ينقله لسامعيه أو قارئيه. يقول ابن رشيق: «ومن العرب من يختم القصيدة، فيقطعها، والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً، كأنه لم يتعمد جَعْلَه خاتمة ،كل ذلك رغبةً في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة ،.... وقد كره الكثير من حذاق الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنه عمل أهل الضعف»[1].

وقد جاء ختم هذه القصيدة بأن خص بها كعب مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم- ومدح قريش معه. إذ يقول[2]:

إِنَّ الرســـولَ لَسَـــيْفٌ يُسْتضـــاءُ بـــه ... مُهَنَّـــدٌ مِـــن سُـــيوفِ اللـــه مَسْـــلُولُ

فـــي عُصْبَـــةٍ مِـــن قـــريشٍ قـــال قَـــائِلُهم ... بِـــبَطْنِ مَكَّـــةَ لَمَّـــا أَسْـــلَموا زُولُـــوا

(1) العمدة، ابن رشيق، 1/ 380.

(2) الديوان، ص 40 وما بعدها.

شُـــمُّ العَـــرانِينِ أبْطـــالٌ لُبوسُـــهم ... مِـــن نَسْـــجِ دَاودَ فـــي الهَيْجـــا سَـــرابِيلُ

بـــيضٌ سَـــوابِغُ قـــد شُـــكَّتْ لهـــا حَلَـــقٌ ... كأَنَّهـــا حَلَـــقُ القَفْعَـــاءِ مَحْـــدُولُ

يَمْشُـــون مَشْـــيَ الجِمَـــالِ الزُّهْـــرِ يَعْصِـــمُهم ... ضَـــرْبٌ إذا عَـــرَّدَ السُّـــودُ التَّنابِيـــلُ

لا يَفْرحُـــــون إذا نالَـــــتْ رمَـــــاحُهُم ... قَوْمـــاً ولَيْســـوا مَجازيعـــاً إذا نِيلُـــوا

لا يَقْطـــع الطَّعْـــنُ إلاَّ فـــي نُحـــورِهُم ... ومـــا لهـــم عـــن حِيـــاضِ المَـــوْتِ تَهْلِيـــلُ

ثم ينتقل إلى مدح آل بيت النبوة من قريش فيقول:

شـــم العـــرانين أبطـــال لبوســـهم ... مـــن نســـج داود فـــي الهيجـــاء ســـرابيل

بـــيض ســـوابغ قـــد شـــكت لهـــا حلـــق ... كأنهـــا حلـــق القفعـــاء محـــدول

لا يفرحـــــون إذا نالـــــت رمـــــاحهم ... قومـــا وليســـوا مجازيعـــا إذا نيلـــوا

ففي الأبيات يشير إلى الدروع التي يلبسونها في عدة الحرب وهي من نسج النبي داود عليه السلام التي علمه الله صنعها، وهو يقتبس من قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ (الأنبياء: 80)، وقوله تعالى: ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ (سبأ: 11)، كما يشير البيت الثاني. وفي البيت الثالث، هؤلاء الأبطال الصناديد لا تشغلهم نشوة النصر؛ لأنها من عادتهم في حروبهم، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ **لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ (الحديد:22) .

قال ابن دريد: «اشتقاق السيف من قولهم: ساف ماله أي هلك؛ لأن السيف سبب الهلاك، ويستضاء به معناه يهتدي به إلى الحق ..»[1]، ويروى أن كعباً –رضي الله عنه- أنشد (من سيوف الهند) فقال النبي عليه السلام: «من سيوف الله»، والهند والهندوائي منسوب إلى الهند، وسيوف الهند أفضل السيوف.

ووصف رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالسيف، لأنه صارم بتار جاهز دائماً للتنكيل بأعداء الإسلام والتصدي لهم .. ثم يلتفت إلى قريش مشيراً إلى قائلهم وهو يعني به عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- وذلك بعد أن تعرض المسلمون لإيذاء قريش حتى أذن الله بالهجرة إلى المدينة فخرجوا إليها خلسة، ثم يصف قوتهم بأن أنوفهم عالية تأبى الضيم وهم أبطال يلبسون الدروع المحبوكة الواسعة الفضفاضة التي تحميهم في الحرب وهم يشبهون الجمال البيض يواجهون عدوهم الجبان الرعديد التِّنبال الذي يفر من المعركة هروباً عن مواجهة الأبطال الصناديد، وهم لا يبالون بالفرحة نظراً لكثرة

(1) شرح بانت سعاد، ابن هشام، ص 501.

انتصاراتهم، فالذين يغمرهم الفرح هم أصحاب الانتصارات النادرة؛ لأنهم يعدون النصر شيئاً غريباً لهم.

أما إذا حمى الوطيس واشتد أوار الحرب فإن صدورهم جاهزة لتلقي الضربات والطعنات فهم لا يولون الأدبار.

وبهذه الصفات النادرة يختتم كعب هذه القصيدة البليغة الشهيرة التي تركت صداها في الأدب العربي وحذا حذوها الشعراء يسيرون على نهجها وينْظمون على منوالها حتى أصبحت أنموذجاً لهم في قصائدهم المدحية على مر العصور.

أما عن الأنصار وموقفهم من سماع هذه القصيدة فلا شك أنهم شعروا بشيء من التهميش والتقصير في حقهم والإشادة بمناقبهم وعلو منزلتهم .

قال ابن هشام: «ويقال إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال له حين أنشده (بانت سعاد) [لو ذكرتَ الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل]» [1].

فقال يمدحهم في قصيدة مطلعها[2]:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ في مِنْقَبٍ من صالحي الأَنصارِ

ومهما كانت الدوافع والأسباب حول هذا الاعتذار المشفوع بالمدح فإن كعب بن زهير لم يكن يسعى من ورائه إلى مصلحة دنيوية أو دفاع عن قبيلته؛ بل كان مدحاً نابعاً من قلب صادق يملؤه الإيمان والتوبة والرجوع إلى الله، ودليلنا على ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم- خلع بردته وأهداها إليه[***].

القصيدة بين المكان والزمان:

اختلفت الآراء عند الباحثين القدامى حول المكان الذي ألقيت فيه هذه القصيدة، وذهبت آراء قليلة أنها ألقيت بالمسجد الحرام بمكة وهذا ما أورده أبو الفرج الأصفهاني[3] إلا أنه لم يثبت ذلك ولذلك نجد أن معظم الآراء ترجح أنه ألقاها في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وهذا ما أثبته صاحب (المستدرك). ونحن نؤيد هذا الرأي ونستأنس إليه، ودليلنا في ذلك .. أنها ألقيت بحضور الصحابة من المهاجرين الذين هاجروا مع الرسول الكريم أو لحقوا به.

ومن جانب آخر أن لفيفاً من الأنصار حضروا إنشادها والأنصار كانوا يقيمون بالمدينة. والسبب

---

(1) نفسه، والصفحة نفسها.

(2) الديوان، (***) وينظر قصيدة بانت سعاد.

(3) الأغاني، 15/ 144.

الثالث أن القصيدة ألقاها صاحبها بعد أن طار إلى المدينة مسرعاً في لقاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وإعلان إسلامه على يديه ونيل عفوه ورضاه قبل فوات الأوان.

أما عن زمان إلقائها فهو العام الثامن من الهجرة بعد فتح مكة، والراجح أنه أنشدها في المدينة بعد منصرف النبي –صلى الله عليه وسلم- من حصار الطائف.

ثانياً- القصيدة بين الرفض والقبول:

لم تسلم هذه القصيدة من النقد واختلاف الآراء، ويطالعنا ناقد يتهجم على صاحب القصيدة ويسوق حججاً واهية -في نظرنا- كما سنتعرض إليه فيما بعد. وهو الدكتور عبد العزيز ناصر المانع الذي شكك في إسلام كعب بن زهير ونفى أن كونها إسلامية. بحجة أن صاحبها استهلها بالغزل ووصف الخمر، وكيف يقبل الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقد حرمت الخمر؟! ولكن لا غرابة في ذلك، «فقد قلد بعض شعراء الصوفية كعباً فمدحوا النبي –صلى الله عليه وسلم- وهم سكارى نشوة العشق هائمين في رحاب محبته عليه السلام»[1].

فكعب بن زهير حقاً بدأ قصيدته هذه بالنسيب وتعرضه لبعض الصفات الحسية والجسدية، بل كل ما ينافي وجهة النظر الإسلامية، «ولكن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أغضى عما في هذه القصائد لإدراكه أن الشعراء لم يقصدوا إلى هذه المعاني بذاتها، بل لكونها تقليداً بنهج فني متوارث. ولكننا في الوقت نفسه نجد المعاني الإسلامية المقتبسة من آيات القرآن الكريم تتسرب في أشعار المسلمين»[2].

أما نقد المانع فقد جاء في النقاط الآتية:

1- لا يكون الدافع دينياً لأخيه بجير عندما كتب لأخيه كعب أن يسرع في الدخول في الإسلام.
2- التشكيك في حقيقة إسلام كعب وإنما أسلم خوفاً على نفسه وطلباً للأمان فقط.
3- وجود الألفاظ الدينية في القصيدة لا يدل على إسلامه.
4- يستبعد الدكتور المانع أن كعباً ارتجل هذه القصيدة، بل لابد من أن يكون قد أعدها من قبل.

ويرى الباحث أن :

1- رد كعب على أخيه بجير بأبيات دافعها ليس دينياً فكيف يعقل هذا وبجير سابق عهد بالإسلام ولولا أنه اقتنع بأن هذا الدين هو دين الحق لما أسرع بدعوة أخيه إليه، وإذا كان

---

(1) شرح بانت سعاد، ابن هشام، ص 43.

(2) الشعر العربي في القرن الأول الهجري، الدكتور محمد مصطفى هدارة، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م، ص 14.

قد أشفق على أخيه من قبيل القرابة والانتماء فهل يؤخذ على دعوة أخيه للإسلام وهل هناك من يتمنى أن يموت أخوه كافرا؟!

2- الدكتور المانع يزعم أن إسلام كعب جاء خوفاً على نفسه فهو كلام مرفوض وهل شق عن قلبه حتى تأكد من حقيقته وهل علم ما في قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ ونحن نحكم بظواهر الأمور والبواطن علمها عند ربي. هذا جانب، ومن جانب آخر هو الذي نطق الشهادتين بلسانه على مرأى ومسمع من الصحابة .. وأكبر من هذا أن وضع يده في يد رسول الله –عليه السلام- ما هي إلا عهد وميثاق، وهي أكبر دليل على عقد مبرم بين كعب ورسول الله وهي معاهدة لا تنفصم عراها إلى أبد الآبدين.

3- أما قوله عن الألفاظ الإسلامية التي وردت بالقصيدة مثل (القرآن والهجرة) لا تدل على إسلامه؛ فربما يكون الصواب قد جانبه كما وردت في شعر أبيه زهير الذي توفي قبل البعثة وكما في شعر الأعشى الذي مات كافراً وأمية بن أبي الصلت الذي صدق لسانه وكفر قلبه، لكن الأمر عند كعب يختلف تماماً حيث تولدت له هذه الألفاظ وما تحمله من معاني رامية كلها جاءت بعد أن استقرت العقيدة في قلبه ونافح عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وليس الخبر كاليقين فها هي أشعاره تدل عليه في غير موطن من ديوانه نسوق منها على سبيل الذكر لا الحصر قوله[1]:

هُـو الحـافِظُ الوسْـنَانُ باللّيـل ميتـاً علـى أَنَّـه حَـيٌّ مِـن النـوم مُثْقَـلُ

وقوله:

فـأَعْلَمُ أَنّـي مَمّـى مـا يـأتِني قَـدَرِي فَلـيسَ يَحْبِسُـهُ شُـحٌّ ولا شَـفَقُ
إن يَفـنَ مـا عِنْـدَنَا فاللـهُ يرزقُنـا ومَـن سِـوانا ولسْـنَا نَحـنُ نَرْتَـزِقُ

وقوله:

وأَعْطيْنـا رَسُـولَ اللـه مِنَّـا مَواثِيقـاً علـى حُسْـنِ التَّصـافِي
أرادوا الـلَّاتَ والعـزّى إلاهـاً كَفَـى باللـه دُون الـلَّاتِ كـافِ

وهذا أحد الباحثين يناقضه الرأي فيرد عليه رداً كافياً أحببت أن أورده هنا لما له من أهمية الرد وقوة الحجة حيث يقول: «ومما يثير العجب ويدعو للتساؤل أن الدكتور المانع نشر قصة إسلام كعب وإنشاده القصيدة بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في مجلة عالم الكتب بالرياض في رجب

(1) الديوان، ص ص 62، 63، والديوان، شرح ودراسة الدكتور مفيد قميحة، دار الشعراني للطباعة والنشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1410هـ/ 1989م. الصفحات: 103، 104، 180، 181.

1401هـ، ولم يعترض على القصيدة بشيء، بل وثقها وساقها مساق التأييد. وفي مجلة المجمع العلمي العراقي عدد 33 رجب 1402هـ نقد القصيدة وشكك بها وقلل من معانيها. فما سر هذا التنافر في الرأي وهل للزمان والمكان أثر لذلك؟ المعنى في بطن الشاعر»[1].

ولعل الدكتور المانع إن فعل هذا فقد فعله أخ له من قبل وهو سعدي أبو حبيب الذي أبدى الرأي نفسه حول هذه القصيدة والذي نشر بحثه في مجلة (الأديب) البيروتية عدد إبريل 1971م .

ولعل أبيات القصيدة تؤكد إيمان كعب وحسن الظن برسول الله –صلى الله عليه وسلم- وتصديقه بما نص القرآن الكريم.

ونحن نتفق فيما ينقله صاحب شرح القصيدة ابن هشام الذي ذهب إلى القول: «وأحسب أن الطعن في صدق كعب –رضي الله عنه- مبعثه الحسد لما بلغته من منزلة، وأنها أثرت في المدائح النبوية وجعلتها فنّاً، والقصائد الدينية لا تحظى بمدح بعض النقاد ولا تواقع مذهبهم»[2].

ومهما وجه من نقد أو تجريح إلى هذه القصيدة، فإنها تعد من بين القصائد التي حلت محل الصدارة، بل أصبحت باكورة لفن المديح النبوي الذي فتحت بابه على مصراعيه واستقى من معينها من جاء بعد كعب بصرف النظر عن إثبات وجودها أو فقدن هيكلها.

1- أما فيما يتعلق بارتجال هذه القصيدة أو إعدادها من قبل فهذا ليس محل خلاف وليس من المهم أنه ارتجلها أو أعدها والأرجح في اعتقادنا أنها كانت وليدة الساعة، تلك التي أنشدت فيها؛ فالشعراء الفحول من المتقدمين من أمثال كعب ليس بالغريب فيه أن ينساب الشعر على لسانه وفق ما ينسجه خياله ويبوح به صدره وشعوره.

والأرجح أنه أعدها قبل قدومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على صدق إيمانه، وصحة إسلامه، وليس عيبا أن يكون قد أعدها، فكل الشعراء يعدون قصائدهم، أما الارتجال فلا يكون إلا في بضعة أبيات، وليس الإعداد عيبا، ولا الارتجال مفخرة .

ثالثاً- اللغة:

أ- الألفاظ والتراكيب:

اللغة هي قدرة الشعراء على اختيار الألفاظ ، وبهذا تكون اللغة هي أهم ما يميز لغة الشعراء على

---

(1) توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، الدكتور مسعود بن عبد الله الفنيسان، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م، ص 59.

(2) شرح بانت سعاد، ابن هشام، ص 41 .

اختيار ألفاظهم التي يقيمون عليها وسائل التعبير، حتى يقدموا للقارئ لغة صافية تخدم أسلوبهم الشعري ونتاجهم اللغوي ولهذا قيل عن الشعر: «أفضل الألفاظ في أفضل المواضع»[1].

«وهناك من القيود أيضاً قيد اللغة التي تظهر فيها القصيدة، فالشاعر لا يصل إلى معنى ثم يبحث عن لفظه ... ولكن الوثبة تأتيه لكل بلفظها ومعناها، وتأتيه منطوقة غالباً .. ومن هنا كان إبداع الشاعر من حيث شاعر إبداعاً نوعياً»[2].

وحتى تؤدي الألفاظ وظيفتها الفنية يجب أن تكون من المألوف المتداول الذي يسهل فهمه للعامة دون قيد أو تعقيد .. وهذا ما أشار إليه ابن الأثير عندما ذهب إلى القول: «وأحسن الألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً؛ ... فإن خير الكلام ما دخل الأُذْن بغير إِذْن»[3].

«إذن فالكلمة المفردة هي وحدة الصورة بوجه خاص، وإن لم تكن وحدة الشعر بوجه عام»[4].

وهذا ما حققه كعب في قصيدته. يقول:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا: زولوا

فمعاني هذه الأبيات كلها سهلة التداول قريبة المأخذ تدل دلالة واضحة على تمكن كعب من مسك زمام اللغة التي تجلت في تعبيره الصادق في هذا المدح الرائع المتميز «فمعاني المديح ... توحي بأنها لم تتطور كثيراً في عهد الرسول عما كانت عليه في العصر الجاهلي. فهي نفس المعاني التي كانوا يمدحون بها رؤساءهم وسادتهم وخلعوها بعد الإسلام على محمد القرشي وقبيلته من قريش ..» [5].

ويضيف الباحث قائلاً: «إن الشعر ظل في عهد الرسول جاهلياً في صورته وموضوعه ومضمونه، وإنه لم يتطور عن نهجه القديم إلا قليلاً من حيث التطرق إلى بعض المعاني الدينية»[6].

---

(1) كولردج، ترجمة محمد مصطفى بدوي، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية، ص 96.

(2) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، الدكتور مصطفى سويف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1969م، ص 303.

(3) المثل السائر، ابن الأثير، 1/ 194.

(4) الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان، محمد عبد الهادي، رسالة مخطوطة بجامعة القاهرة، 1972م، ص 79.

(5) في الأدب الإسلامي والأموي، الدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/ 2001م، ص 34.

(6) نفسه والصفحة نفسها.

التكـــرار:

التكرار «أسلوب عرفه العرب منذ القدم، ويدلل على ذلك ما حفل به شعرهم من تكرار الأسماء والمواضع في مواقف مختلفة»[1]. من أبرز الخصائص اللغوية التي نلمسها في هذه القصيدة ظاهرة التكرار الصوتي والتي تتمثل في التكرار الحرفي:

بانـــت ســـعاد فقلبـــي اليـــوم متبـــول متـــيم إثرهـــا لـــم يجـــز مكبـــول

ومـــا ســـعاد غـــداة البـــين إذ رحلـــوا إلا أغـــن غضـــيض الطـــرف مكحـــول

فهنا نجده قد كرر حرف (الباء) خمس مرات، في بيتين ليدل على براعة التصوير وجودة التعبير.

كما نلاحظ تكرار حرفي (العين) خمس مرات و(اللام) ثماني مرات في قوله:

كانـــت مواعيـــد عرقـــوب لهـــا مـــثلا ومـــــا مواعيـــــدها إلا الأباطيـــــل

أرجـــو وآمـــل أن يعجلـــن فـــي أبـــد ومـــا لهـــن طـــوال الـــدهر تعجيـــل

ثم نجده يكرر حرف (الواو) تسع مرات في قوله:

يـــا ويحهـــا خلـــة لـــو أنهـــا صـــدقت موعودهـــا أولـــوَ ان النصـــح مقبـــول

أو أنهـــا خلـــة قـــد ســـيط مـــن دمهـــا فجـــــع وولـــــع وإخـــــلاف وتبـــــديل

إلى غير ذلك من تكرار العديد من الحروف ..

وهو كله تكرار يوحي بمدى مقدرة الشاعر على التكيف في اختيار الحرف الملائم للتعبير عن فنه ورؤاه.

وله لون من التكرار يأتي في الكلمة الواحدة، وهو ما يعرف بالتكرار المقطعي الذي يأتي جَرْسه اللفظي ما يضفي على الصورة نمطاً معيناً من الموسيقى وخفة الوزن، وذلك مثل: (سعاد، خُلّة، مواعيد، سيف، مكبول، معلول، مشمول، مقبول، الغرابيل، الأباطيل، المراسيل، التنابيل). وهي كلها إيحاءات تترك أثراً واضحاً في لغته والحرص على العناية بها.

التراكيـــب:

الحديث عن الألفاظ الخاصة بلغة كعب يجرنا إلى الحديث عن التراكيب، وهذه التراكيب نستشف مضمونها حسب سياقها اللغوي الذي يرمي إليه من استخدامه لها، والذي دلت عليه بعض الصيغ مثل: (أكرم بها خلة، وألهنيك إني عنك مشغول، ولا أبالكم، وعلى آلة حدباء محمول، والعفو

(1) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، الدكتور ماهر هلال، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (195)، دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد، 1980م، ص 139.

عند رسول الله مأمول). فمثلاً قوله:

أكـــرم بهـــا خلـــة لـــو أنهـــا صـــدقت موعودهـــا أولـــو ان النصـــح مقبـــول

فالتعبير بقوله: (أكرم بها) يدل على التعجب أي ما أكرمها، وقد استعمل صيغة (أفعل به) الذي جاء على صورة الأمر زيادة في الإعجاب.

وقوله: «تقول العرب: لا أبالك ولا أب لك ويقال في المدح والذم يستعمل في التفجع والتعب...»[1].

فقلت: خلوا سبيلي –لا أبالكم- فكل ما قدر الرحمن مفعول، والتعبير بقوله: (لا أبالكم) كلام يستعمل كناية عن المدح والذم .. وذلك لما يئس من الاستجداء بقومه طلب منهم أن يخلوا سبيله؛ لأنه لا يهاب أسباب المنايا، وهو واثق من عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دل عليه قوله بعدها: أنبئت أن رسول الله أوعدني ... البيت. وإذا لم يكن من الموت بد -مهما طال الزمن- فعلام يخشَ المرء فرقة روحه؟، و هذا ما دل عليه قوله: يوماً على آلة حدباء محمول.

المعجم الشعري ومستوياته:

كل ألفاظ اللغة صالحة للاستخدام الشعري، والقيمة ليست فيها وإنما في اختيار الشاعر لها، ووضعها ضمن سياق لغوي معين، فليس ثمة لغة "شعرية" وأخرى ليست كذلك.ولذلك لا نختلف مع ابن رشيق في قوله: «وللشعر ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يَعْدُوها، ولا أن يستعمل غيرها»[2].

والمعجم الشعري عند كعب في هذه القصيدة نجده يضم مجموعة من الألفاظ تجمع بينها آصرة القربى ووحدة الموضوع والتي وجدناها تتمثل في الألفاظ الدينية وألفاظ الحيوان والطير وألفاظ النبات ..). ولعل أهم شيء يلفت انتباهنا في هذا المعجم هي الألفاظ الدينية؛ لأنها تدل على شاعر عربي مسلم ويذوب في الإسلام، حيث تأثر بنصوص القرآن الكريم الذي هذب أسلوبه وصقل لغته وأعانه على تكوين معجمه الشعري، فجاءت ألفاظه الدينية قوية معبرة دلت على حسن إسلامه، وقد تجلت هذه الألفاظ في القصيدة مثل: (الرحمن، رسول الله، العفو، القرآن، النافلة، النور، قريش مكة، داود). كما نصت عليه بعض أبيات مدحه للرسول عليه السلام.

وهذه الألفاظ الإسلامية ليست غريبة على الشاعر، فهو يعرفها، ويسمع بها، حتى قبل أن يدخل في الإسلام، فهي من ثقافة العصر، ومن روح المرحلة، ويعرف كفار قريش تلك الألفاظ، ويتداولونها،

---

(1) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي (ت: 473هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، 1418هـ/ 1997م، 2/ 333.

(2) ابن رشيق، العمدة، 1/ 206.

حتى قبل أن يدخلوا في الإسلام.

ومن الطبيعي قبل أن يقدم على رسول الله أن يكون قد استمع إلى بعض الآيات الكريمة، واستوعب بعض المفاهيم الإسلامية، لذلك برزت الألفاظ الإسلامية في شعره، فالتوبة والندم والدخول في الإسلام لا يكون هكذا قفزة في المجهول، وليس عن طفرة، ولا بد له من استعداد وتهيؤ قبل الدخول في الإسلام وقبل القدوم على الرسول، ولا يعقل أيضا أن ينهض الصحابة لقتل كعب، إنما هي من مبالغات الرواة، لاصطناع الخبر والتشويق.

رابعاً- الخصائص البلاغية:

كانت الخصائص البلاغية -في هذه القصيدة- في التشبيه والكناية والطباق والجناس والتصدير والترصيع والتضمين ..). ولما كان وصف الناقة قد طغى على معظم أبيات القصيدة إذن من البدهي أن يحتمل التشبيه مساحة واسعة من هذه الخصائص، ومن بين التشبيهات التي وردت في القصيدة قوله:

عيرانة قذفت باللحم عن عرض ... ومرفق عن نبات الزور مفتول

سمر العجايات يتركن الحصى زيما ... ولا يقيها رؤوس الأكم تنعيل

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت ... وقد تلفع بالقور العساقيل

نواحة رخوة الضبعين ليس لها ... لما نعى بكرها الناعون معقول

ففي البيت الأول يشبه الناقة بالثور الوحشي في صلابتها ونشاطها .. وفي البيت الثاني يشبهها بالرماح في قوائمها فهي صلبة كالرماح. وفي البيت الثالث كأنها الجبال التي غطاها السراب؛ لأن السراب يظهر بوضوح عند اشتداد حرارة الشمس أما في الناقة فالتشبيه يظهر عندما تعرق، وفي البيت الأخير يشبهها بالمرأة النائحة التي فقدت ولدها ونقل إليها الناعون خبر فقدها إياه، فهي في حزن متواصل وهذا ما دلت عليه صيغة المبالغة (نواحة).

الكنـــايـــة:

وردت الكناية في وصفه الصحابة من قريش، أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول:

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوماً وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

ففي البيت الثاني شم الأنوف كناية عن العزة وترفعهم عن الدنيا، والأنف دائماً دليل العزة والأنفة والكبرياء وإباء الضيم. وفي البيت الثالث كناية عن انتصاراتهم المتعددة إلى درجة أنهم لا يهتمون بالفرح لكثرة هذه الانتصارات التي أصبحت من ديدنهم وطبعهم.

الاقتباس:

ويسميه بعض النقاد المحدثين التناص والتضمين ، وفي اعتقادي أن استعمال كلمة "الاقتباس" أفضل من غيرها. وحين تحدث الزركشي (ت 794هـ) عن الاقتباس قال: «هو إعطاء الشيء معنى الشيء»[1]. وقد سبقه ابن أبي الإصبع المصري (ت 654هـ) الذي يرى من حسن التضمين «أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت، أو من آية أو معنى مجرداً من كلام ...» [2].

وقد شاع مصطلح الاقتباس لدى أعلام المتأخرين من أمثال: الخطيب القزويني (ت 739هـ) وابن حجة (ت 837هـ)، والسيوطي (ت 911هـ) وابن معصوم (ت 1120هـ)، حيث نجد استعمالهم لهذا المصطلح جاء متعلقاً بالأخذ من القرآن[3]. ومنهم من أضاف الأخذ من الحديث النبوي أيضاً.

كما أشار أحد النقاد المحدثين إلى أن «التضمين أسلوب بلاغي قديم وظفه الشاعر لخلق معادل لبعض الأبعاد الفكرية والشعرية لرؤاه»[4].

ولما كانت قصيدة (بانت سعاد) ألقيت في صدر الإسلام وأن صاحبها خص بها مدح خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، إذن لا غرابة أن يكون الشاعر قد اقتبس ألفاظها ومعانيها من آي الذكر الحكيم حتى يطابق مدلولها هدفها ومرماها.

ويتمثل ما ساقه كعب بن زهير في الأبيات الآتية:

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ففي البيت الأول يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (الأعراف: 199). حيث الصفح من أخلاق رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وأنه لا يجزى بالسيئة ولكن يقابلها بالصفح والغفران.

---

(1) البرهان في علوم القرآن، خرج أحاديثه وقدم له وعلق عليه، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1408هـ/ 1988م، 3/ 388.

(2) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة، 1383هـ، ص 140.

(3) ينظر، الثعالبي (ت 429هـ): الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق، الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، تقديم الدكتور عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر (107)، إصدار أول نوفمبر 2003م، ج1، المقدمة، ص 51.

(4) في التناص الشعري، الدكتور مصطفى السعدني، منشأة المعارف – الإسكندرية، (د – ت)، ص 179.

وروى سفيان بن عيينة أن النبي –صلى الله عليه وسلم- حين نزلت هذه الآية قال: يا جبريل، ما هذا؟ قال لا أدري حتى أسأل العَالِمَ ثم عاد جبريل، وقال: يا محمد، إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق[1].

وفي البيت الثاني يصف القرآن الكريم بأنه نافلة القول، ونحن نعلم أن النافلة هي ضرب من السنة، لكن الشاعر هنا استخدمها أحسن استخدام وجعل اللفظ مطابقاً للمعنى، وهذا ما يتفق مع قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ** ﴾ (الإسراء: 79)، ويسمى ابن الابن نافلة، قال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً** ﴾ (الأنبياء: 72).

وفي البيت الثالث سواء وصف الرسول بأنه نور أو أنه سيف فكلاهما وصف دقيق والأولى تتفق مع السياق في قوله: "يستضاء به"، أي أنه يهتدي به إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌوَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ (المائدة: 15، 16).

ونجد بعض الأبيات -في هذه القصيدة- التي ضمنها كعب أشعار الآخرين، وهي أبيات مقلّدة نجتزئ منها، قوله:

كانت مواعيدُ عُرْقُوب لها مثلاً ... وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

جاء في قول علقمة الأشجعي:

وَعَدْتِ وكان الخُلْفَ مِنْكِ سَجِيَّةً ... مواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاه بِيَثْرِبَ

وقوله:

لاَ تَأخذنِّي بأقوالِ الوُشَاةِ ولَمْ ... أُذْنِبْ وإنْ كَثُرتْ فِيَّ الأَقاويلُ

قال النابغة:

لا تَقْذِفَنِّي بِرُكْن لا كِفَاء لَه ... وإن تَأَثَّفَكَ الأَعْدَاءُ بالرِّفَدِ

ما قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتُ بِهِ ... إذاً فلا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه المعايشة المتأنية مع قصيدة (**بانت سعاد**) آن للبحث أن يقف على قدميه ليعلن كشف

---

(1) شرح بانت سعاد، ابن هشام، ص 478. وانظر أيضًا الصفحات الآتية من شرح بانت سعاد: الصفحات: 330 – 331، 332 – 362 – 448 – 480، 481، وينظر ديوان المعاني للعسكري (ت: 395هـ) تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مؤسسة العلياء للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1429هـ/ 2008م، 1/ 429.

النقاب عما يدور حول هذه القصيدة وما تضمنته من عناصر وأهداف وما عبرت به من حسن إسلام كعب و مقابلة موقفه هذا من صدور عفو الرسول الكريم عليه ومجازاته بأعظم هدية عرفها تاريخ البشرية وهي التي تمثلت في خلع بردة الرسول وإلباسه إياها وهي البردة الذي صارت لها أهمية بالغة حيث توارثتها الأجيال تباعاً حتى حظي الخلفاء بالتبرك بها وبذل الأموال الطائلة في شرائها كما فعل معاوية .. وتقديم هذه الهدية الثمينة لكعب لهي خير دليل على أنه في مديحه للرسول الكريم لم يكن يسعى من ورائه إلى مصلحة دنيوية أو دفاع عن قبيلته، بل كان مدحاً نابعاً من قلب صادق يملؤه الإيمان والتوبة والرجوع إلى الله فيما تبقى من حياته .

وفي ختام هذا البحث نصل إلى النتائج الآتية :

1- قول بجير أن رسول الله أوعد قوما فقتلهم أراه ليس صحيحا ؛ حيث لم يثبت أن الرسول أوعد أحدا بإهدار دمه ، ولكن ربما يكون من قبيل التخويف ليس إلا .

2- مثلت **مقدمة كعب** المقدمة التقليدية للقصيدة الجاهلية، ولذا قبلها المتلقون فنيا وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

3- هذا الغزل الجميل الذي ورد في القصيدة وحظي بالقبول من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لهو دليل قاطع على لطفه ورقته وذوقه ، وهو العربي الذي سمع الشعر ، وقال :(إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً ؟!).

4- يبدو لي أن سعاد تعبير عن السعادة أو بالأحرى الأمن والأمان والطمأنينة التي كان يحس بها كعب ، ولكنها بانت وفارقته بعد أن أهدر الرسول دمه ، وإهدار الدم هو في الحقيقة من باب التحذير والإنذار ، وليس من باب الحقيقة بقدر ماهو من المجاز كما جرى على ألسنة الشعراء.

5- ارتبط حجم القصيدة (39-51-54-58) بكثرة الآراء المثارة حول البردة ، وقد اعتمد البحث على رأي ابن هشام أنها (58 بيتا) ليشمل كل الأبيات المحتملة .

6- وظف كعب الخاتمة للتأكيد على الهدف الرئيس وهو (الاعتذار والعفو) ، عبر مدحه للمهاجرين والأنصار لاستلال غضبهم وقد نجح في ذلك .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1- ابن الأثير (ضياء الدين أبو الحسن علي بن الكرم ت: 637هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق الدكتور أحمد الحوفي، الدكتور بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة- القاهرة، الطبعة الأولى، 1380هـ/ 1960م.

2- أحمد الشايب (د): الغزل في تاريخ الأدب العربي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة – تونس، الطبعة الأولى، 1994م.

3- ابن أبي الإصبع المصري (ت: 654هـ): تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة، 1383هـ.

4- الأصفهاني (أبو الفرج ت: 356هـ): الأغاني، تحقيق علي محمد البجاوري بإشراف محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

5- ابن الأنباري (ت: 328هـ): شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، (د - ت) (سلسلة ذخائر العرب 35).

6- البغدادي (عبد القادر بن عمر ت: 473هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، 1418هـ/ 1997م.

7- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد ت: 429هـ)، الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق، الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، تقديم الدكتور عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الذخائر (107)، إصدار أول نوفمبر 2003م.

8- الجمحي (محمد بن سلام ت: 231هـ): طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط (د – ت).

9- حازم القرطاجني (أبو الحسن ت: 684هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1986م.

10- حسين عطوان (د): مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام، دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1987م.

11- ديوان جرير، تحقيق، محمد إسماعيل عبدالله الصاوي، مكتبة محمد حسين النووي، دمشق/سوريا، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت/لبنان ط (د - ت).

12- ديوان طرفة بن العبد: شرحه وقدم له، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1423هـ/ 2002م.
13- ديوان كعب بن زهير: صنعة الإمام أبي سعيد الحسين بن الحسين السكري، قدم له ووضع فهارسه وهوامشه الدكتور حنا نصر الحي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1994م.
14- ابن رشيق (أبو علي الحسن ت: 456هـ): العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الغواص لنشر مكنون العلم ومصوغه، القاهرة، الطبعة الشرعية، 1441هـ/ 2019م.
15- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله ت: 794هـ): البرهان في علوم القرآن، خرج أحاديثه وقدم له وعلق عليه، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1408هـ/ 1988م.
16- الزركلي خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، مايو 2002م.
17- زكريا عبد الرحمن صيام (د): الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، دون الطبعة وتاريخها.
18- زكي مبارك (د)، المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الحجة البيضاء، طبعة (د – ت).
19- شوقي ضيف (د): التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، الطبعة العاشرة (د - ت).
20- ابن عبد البر (النحوي القرطبي ت: 462هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م.
21- عبد الرحيم محمود زلط (د): العدة النفسية والمادية في شعر الحروب الجاهلية، دار المعارف، 1989م.
22- عبد العزيز عتيق (د)، في الأدب الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/ 2001م.
23- عبد الهادي أحمد أبو القاسم (د): شعر جرير – دراسة فنية، رسالة دكتوراه مخطوطة، نوقشت بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عام 2011م وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى.
24- العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل ت: 395هـ):

- كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، (د – ت).
- ديوان المعاني، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مؤسسة العليا، للنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة الأولى، 1429هـ/ 2008م.

25- فوات المحققين نقد لكتب محققة من التراث، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1999م.

26- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت: 276هـ): الشعر والشعراء، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، دار الحديث، الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2001م.

27- القرشي (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب) (ت: أوائل القرن الرابع): جمهرة أشعار العربي في الجاهلية والإسلام، تحقيق، الدكتور محمد علي الهاشمي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1435هـ/ 2014م.

28- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ .. الدمشقي ت: 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 1408هـ/ 1988م.

29- كولردج: ترجمة محمد مصطفى بدوي، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية (د – ت).

30- ماهر هلال (د): جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (195)، دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد، 1980م.

31- محمد بريبادي: قصيدة بانت سعاد (تحليل الأسلوب الأدبي)، بحث مقدم من محمد بريبادي، كلية الآداب جامعة "سونين كاليجاكاري أندوسيا.

32- محمد عبد الهادي: الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان، رسالة مخطوطة بجامعة القاهرة، 1972م.

33- محمد مصطفى هدارة (د): الشعر العربي في القرن الأول الهجري، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

34- مسعود بن عبد الله الفنيسان (د): توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م.

35- مصطفى السعدني (د): في التناص الشعري، منشأة المعارف – الإسكندرية، (د – ت).

36- مصطفى سويف (د): الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1969م.

37- النيسابوري (أبو عبد الله محمد .. الحاكم ت: 405هـ): المستدرك على الصحيحين، مكتبة نهضة مصر الحديثة، الرياض – المملكة العربية السعودية (د- ت) رقم 2077/ 6479، 3/ 673.

38- ابن هشام (ت: 218هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط (د – ت).

39- وائل علي محمد السيد (د): قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير قراءة في ضوء المنهج الحجاجي، بحث نشر في مجلة كلية التربية، جامعة عية شمس، العدد (24)، الجزء الثاني، 2018م.

40- يحيى الجبوري (د):

- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة السابعة 1425هـ/ 2004م.